

## الشعر في العصر الأموي

إذا نظرنا إلى بيئة الشعر في العصر الأموي نجدها قد تغيرت وتطورت فهذه مكة والمدينة قد تحضرتا وكثر فيهما الترف والرقى ، والعبيد والمغنيات والمغنيين والإماء ، واكتملت لها كل أسباب المرح البرئ الذي قوامه الذوق الراقى المهذب ، مما جعل أهلها يحزنون على فراقها كما حدث لأبي فطيفة الأموي حين نفاه ابن الزبير إلى دمشق أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر مقارنةً بينهما وبين دمشق ، ولا نقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طرد من فردوسه الأرضي يقول في مطلع قصيدة له :

القصر فالنحل فالجماء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جبرون

ويقول :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكاد أنام

وكان للحروب الدامية والمعارك العنيفة ، والثورات المتلاحقة التي شهدتها العصر الأموي أثر كبير في إذكاء ربح الشعر ، وإشعال ناره إذ كان يجري على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة ، وتأيداً لمذهبهم ، ودفاعاً عنه ، ورداً على الآخرين ونقضا لهم .

وقد ظهرت أعراض جيدة في الشعر في هذا العصر على رأسها الغزل ، إذ كان في العصور السابقة يتخذ بداية ومقدمات للقائد في مختلف أغراضها ، أما في العصر الأموي فقد أصبح فناً مستقلاً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء في

مقدمتهم ( عمر بن أبي ربيعة ) إذا جعل ديوانه كله غزناً وكذلك ظهر شعر النقائض على يد جرير والفرزدق والشعر التعليمي والرجز إلى غير ذلك من الأغراض التي جدت في هذا العصر.

وقد أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي تأثيراً واضحاً ، فنرى الغزل وقد تطهر ووصفى مما كان عليه من قبل ، ونشأ الغزل العزري وكأنما أضيف الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية أحاطها بهالة من الجلالة والوقار. كما نرى في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيره .

أما شعر المديح فقد تحول إلى تصوير الفضيلة الدينية في المدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه ، فنهض الشعراء يتحدثون عن تقواهم ، وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية ، وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ، تأثر فن الهجاء كذلك ، إذا أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق والبغي والطغيان .

أما شعر الحماسة فقد كان أقوى في تأثره بالإسلام . إذ كان أكثره ينظم في الجهاد ، وحب الشهادة والتضحية في سبيل الله .

كما طبع الرثاء بطابع الإسلام ومبادئه من التسليم لله بالرضا بفضائله ، فكل نفس ذائقة الموت ، وهو حسمٌ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرعوا إن شاء بالصبر الجميل .

هذا من ناحية موضوعات الشعر وأغراضه ، أما من حيث الألفاظ والأساليب والأوزن ، فلم يختلف بناء القصيدة في هذا العصر عنه في عصر الجاهلية وصدر الإسلام فقد اشتملت على عدة عناصر من الأغراض والمقاصد

فكان الشاعر يبدأ بالنسيب وذكر الديار ثم يفخر بنفسه وقومه ، ثم يقتضب الكلام إقتضاباً ، وينتقل إلى الغرض الذي يقصده من مدح أو هجاء على ما كان متبعاً في العصر الجاهلي وعند شعراء الإسلام .

ولم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصورهم وتخييلهم عما الفؤء في العصرين السابقين وإن خالفوهم في ترتيب الفكر ، وتقريب المعاني إلى الأذهان والوجدان بما هذب نفوسهم ، ورقق طباعهم ، من دراسة كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، بما نوع خيالهم ووسع معارفهم من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات .

كما لم يخرجوا جملة في تأليف ألفاظهم ، ونسج أساليبهم عن نظائرهم في الجاهلية والإسلام ولكنهم أثروا جزالة اللفظ ، وفخامته وحسن جرسه ، ومؤلفته لسابقه ولاحقه دون غرابة أو تنافر ، وربما تعمد بعضهم الغريب ، ومداخلة بعض الكلام في بعض ليعجب علماء اللغة والنحو كالفرزدق ، كما أثروا جودة الأسلوب وروعة تأثيره ، ورقته وعزوبته في الغزل القصصي والنسيب والعفيف البدوي .

هذا عن القصيدة أما الرجز فقد كانت الغرابة من ألزم طبائعه . أما الأوزن والقوافي فلم يصبها تغيير يذكر عما كانت عليه من قبل ، ولكن شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها في جميع أغراض القصيدة ، حتى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والزهد ونحو ذلك .

## جميل بثينة والحب العزري

" من بحر الطويل "

يقول جميل :-

ألا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّقَاءِ جَدِيدِ  
ودهرا تَوَلَّى يا بُنَيْنُ يَعُودُ  
فَنَعَّيْ كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ  
صديق وإِذَا ما تَبَدَّلِينَ زَهِيدُ  
وَمَا أَنْسَى مَلَأَ شَيْءٌ لا أَنْسَى قَوْلَهَا  
وَقَدْ قَرِبتَ نِضْوِي أَمْضِرَ تَرِيدُ  
ولا قَوْلَهَا : لولا العِيُونُ التي تَرى  
أَتَيْتُكَ ، فاعذُرني فَدَتَكَ جُدُودُ  
خَلِيلِي ما أَخْفَى مِنَ الوَجْدِ ظَاهِرُ  
وَدَمَعِي بما أَخْفَى العَدَاةَ شَهِيدُ  
ألا قَدْ أَرى وَاللهِ أَنَّ رَبَّ عَبْرَةٍ  
إِذَا الدَّارُ شَطَطَتْ بَيْنَنَا سَتْرِيْدُ  
إِذَا قَلْتُ : ما بي يا بَثِينَةَ قَاتلي  
من الحُبِّ قَالَتْ : ثَابِتُ وَيَزِيدُ  
وَإِنْ قُلْتُ زُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ  
مع النَّاسِ قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ  
فلا أَنَا مَرْدُودُ بما جِئْتُ طالِباً  
ولا حُبُّها فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ

جَزَتْكَ الْجَوَازِي يَا بُنَيْنُ مَلَامَةً  
 إِذَا مَا خَلِيلُ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ  
 وَقُلْتُ لَهَا : بَيْنِي وَبَيْنَكَ فاعْلَمِي  
 مِنْ اللَّهِ مِيثَاقُ لَهُ وَعُهُودُ  
 وَقَدْ كَانَ حُبُّكُمْ طَرِيفاً وَتَالِداً  
 وَمَا الْحُبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ  
 وَإِنَّ عَرُوضَ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا  
 وَإِنْ سَهَلْتَهُ بِالْمُنَى لَصَعُودُ  
 فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بَانْتِظَارِي نَوَالِهَا  
 وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ

\*\*\*\*\*

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً  
 بَوَادِي الْفُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ  
 وَهَلْ أَهْبَطَنَ أَرْضاً تَطَّلُ رِيَاحُهَا  
 لَهَا بِالثَّنَائِيَا الْقَاوِيَاتِ وَئِيدُ  
 وَهَلْ أَلْفَيْنُ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً  
 وَمَارَتْ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ  
 وَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ بَأْسَةٍ  
 وَقَدْ تَطَّلَبَ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ  
 وَهَلْ أَرْجُرُنْ حَرْفًا عَالَةً شَمَلَةً  
 بَخَرَقَ ثُبَارِيهَا سَوَاهِمُ سُودُ

على ظهر مهوبٍ كأنَّ نُشُورَهُ  
 إذا جازَ هُلاكُ الطريقِ رُفُودُ  
 سَبَبْتِي بِعَيْنِي جُودِرٍ وَسَطَ رُزْبِ  
 وَصَدْرٍ كَفَا ثُورِ اللُّجَيْنِ وَجِيدُ  
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَمِثْلِهَا  
 فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الحَيَاةِ رَشِيدُ  
 يموت الهوى منى إذا ما لقيتها  
 ويحيا إذا فرقتها فيعودُ  
 يقولون : جاهد يا جميلُ بعزوةٍ  
 وأي جهادٍ غيرهن أريدُ ؟  
 لكل حديثٍ بينهن بشاشةُ  
 وكل قتيلٍ بينهن شهيدُ  
 ومن كان في حبي بُنيئةً يمترى  
 فبرقاء ذي ضالٍ على شهيدُ  
 ألم تعلمي يا أمَّ ذي الودع أنِّي  
 أضاجكُ ذكراكمُ وأنتِ صلودُ

وراسة القصيرة :

#### ١- التعريف بالشاعر :

هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي . وهو شاعر فصيح مقدّم .. جامع للشعر والرأية ، كان راوية هديبة بن خشرم ، وكان هديبة شاعراً راوية للحطيئة وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه كعب وكان كثير بن

عبد الرحمن ( كثير عزة ) راوية لجميل ، ومعنى ذلك أنه موصول الأواصر بمدرسة شعرية كان لها تاريخ كبير في الحرص على شرف المعنى وقوة الأسلوب وجزالته .

ويعد جميل من عشاق العرب ، فقد افتتن بحب بثينة ، وهام على وجهه حتى استقر في مصر تاركاً بني عذرة في وادي القرى ، وقرب المدينة المنورة ، وظل مقيماً في رحاب عبد العزيز بن مرزبان واليهما فأكرمه وظل يمدحه حتى توفي عنده عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، وتناقل الناس أخباره وأشعاره العذرية الرقيقة في الشعر العذري الذي ابتكره مع شعراء اشتهروا بذلك في العصر الأموي ، منهم : قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وكثيرة عزة ، وتوبة الخفاجي . ويعده النقاد في البادية نظير عمر بن أبي ربيعة في الحاضرة وكلاهما حجازي خضعاً لعوامل متقاربة .

أما صاحبة جميل فهي بثينة بنت حباب بن ثعلبة بن ربيعة ... حيث تلتقي مع جميل في النسب ، وكانت تكني أم عبد الملك لكن ماذا عن قصة هذين العاشقين ومأساتهما ؟

تشهد أخبار جميل وبثينة أن هذه المأساة بدأت بحادث عابر ، تفجرت منه كل الرأفة العاطفية حتى نهاية المدى ، فقد كان جميل في أول عهده بالعشق يهوي ( أم الجسير ) أخت بثينة الكبرى ، وذات يوم أقبل جميل بإبله حتى أوردتها وادياً ترعى كما تشاء ، وكان يقطن في طرف هذا الوادي قوم بثينة ، وتصادف في هذا اليوم أن خرجت الفتاة بصحبة جارة لها .. ترذان الماء ، فمرتاً على بعض من إبل جميل فنفرته ، وشق ذلك على الفتى فقام من ضجعتة إلى بثينة تلك الفتاة الصغيرة التي خالها حمقاء فعنفها على سلوكها وسبها فردت عليه سبه بسب آخر وغالت فيه .

وأدرك جميل كم هي رقيقة تلك الفتاة ، وكم هو مليح سبابها ، فشعر بسهم  
الحب ينفذ إلى عمق قلبه ، فأحب سبابها ، وعلق بها .

أية عاطفة طاغية تلك التي تقيمها الإساءة والحرمان والسباب ، وكأن قلبه  
كان ينفتح في شوق جارف لعاطفة تملؤه .

وينصرف جميل عن أم الجسير إلى أختها الجميلة بثينة وفي ذلك يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا

بوادي بغيض يا بثين سبابُ

وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله

لكل كلام يا بثين جوابُ

وبهذا تبدأ سطور قصة العشق بين جميل وبثينة ، وتتتابع فصول القصة  
يوماً بعد يوم حتى ينسى المؤرخون نسب جميل ، ويذكروا فقط اسمه مقرئنا  
بمحبوبته بثينة .

وتورد الأخبار أنه قد وقع لبثينة هوى جديد مع رجل اسمه حجنة الهلالي ،  
فلم يزد ذلك إلا فتوناً إلى فتون ، ووقعت الجفوة بينهما ، وهي جفوة لم تشفه من  
جواه ؛ لأنه كان قد صار إلى حالة لا ينفع فيها دواء .

ولم يفلح أهله في إقناعه بوجوب الكف عن هوى امرأة ليس له من أطايبها  
غير النعيم بأوهام الخيال .

وقد اعترف جميل بأن من الحمق أن يذوب الرجل وجداً بامرأة تكون  
أطايبها في زمام رجل سواه . ثم اعتذر بأنه لا يملك الصبر عن الهيام بتك المرأة ،  
لأنها ملكت عليه أقطار نهاه وقد أضله هواه فلم يعد يعرف مذاهب التجميل ولا  
مسالك العقل .

وتشهد أخبار جميل وبثينة كأنهما كانا عاشقين يريان للعشق غاية أشرف  
من المتاع المبذول في دنيا الأهواء ، ومن أجل هذا سخر جميل من العبارات التي  
وجهت إلى من يعشق امرأة لها بعل ، وهي عبارات غليظة تؤذي الرجل البدوي  
أشد الإيذاء .

ولم تقف بلية الحب عند الهيام بامرأة متزوجة لا تنال منها المطالب  
الحسية إلا عن طريق الإثم - وهو مسلك يبقته جميل كل المقت - فقد صدر أمر  
السلطان بإهدار دم جميل إن فكر في زيارة بثينة ، فرحل إلى اليمن مرة ، وإلى  
الشام مرة ، وطالت به الحيرة في تلمس أسباب الخلاص من هواه ، فلم يجد أفضل  
من الرحيل إلى مصر ، ولم تطل أيامه بمصر ، فقد أخذ النور يخبو واحس أن الستار  
الأخير سوف يسدل عليه ، فدعا صديقا له وأوصاه أنه إذا مات عليه أن يأخذ  
حلته في حقيبته ويذهب إلى قوم بني الأحب من عذرة - وهم قوم بثينة وأن يصيح  
بهذه الأبيات :

بكر النعي - وما كنى - بجميل

وشوى بمصر ثواء غير قفول

بكر النعي بفارس ذي همة

بطل إذا حمل اللواء مديل

ولقد أجر الذيل في وادي القرى

نشوان بين مزارع ونخيل

قومي بثينة فاندبي بعويل

وابكى خليلك دون كل خليل

ففعل الرجل ما أوصاه به جميل ، فما كاد ينقضي من إلقاء هذه الأبيات حتى برزت إليه بثينة يتبعها نسوة قد برزتهن طولاً وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برزت في جنة فقالت : يا هذا لئن كنت صادقاً لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني : فقال الرجل : والله ما أنا إلا صادق . وأخرج حلة جميل فلما رأتها بثينة صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت ووقعت مغشياً عليها . فلم يريوم كان أكثر بكاء منه .

وهكذا تغلق الصفحة الأخيرة في هذه المأساة ، على صورة عاشقين كتب عليهما قدرهما أن يعيشا على وجد ومرارة وشوق جارف ، يموت العاشق بعيداً عن وطنه وتحيي العشوقة في كمد وحزن ووحشة تجتر ذكرياتها القديمة حتى طوقتها رمال عذرة بعد موت حبيبها بقليل ليلتقيا في جنة العاشقين التي لا تعرف الفراق مهما بعدت بينهما المسافة .

ويقتضينا المقام أن نقول إنه إذا كانت مأساة قيس ولبنى - على شهرتها الواسعة - أشد هذه الماسي اختلاطاً واضطراباً في أخبارها الكثيرة وما دخلها من وضع الرأاة وتزيد القصاص وأوهام السمار ، فإن قصة جميل وبثينة لم ينلها هذا الاختلاط ولا تختلف مصادرها كثيراً ، ومن ثم فهي أقرب هذه الماسي للواقع ؛ حيث نجت من عبث الرأاة والقصاص والسمار . أقرب أقر

### غرض القصيدة :

قصة جميل في الشعر والحب العذري تعد من النوادر في تاريخ الأدب العربي ، فهو من حيث الشعر رجل قوي الأسر محكم الأسلوب ، وقد استعد للشعر كل الاستعداد .

أما من حيث الحب فقد تأهب له جميل بمواهب تجعل قصته فيه على جانب عظيم من الجاذبية ، فقد كان جميل فتى شريف النفس ، شجاع القلب يخافه العدو ويرجوه الصديق .

ولم يكن العشق والحب العذري عنده فنا من اللهو أو العبث ، وإنما كان محنة أصيب بها قلبه الجريء ، وقد طال بلاؤه بمحنة العشق ولم ينقذه غير الموت وهو مغترب وحيد .

ولما كان جميل بعيداً طريد الحب ، فقد عاش على الذكرى والأمل في لقاء المحبوبة وتجدد أيام الصفاء والحب ، وهذه القصيدة إحدى النفثات التي أخرجها جميل من حنايا نفسه ومن بين ضلوعه ، وسويداء قلبه ليعبر بها عن حبه وإخلاصه واشتياقه لمحبوته بثيينة ، وقد قال هذه القصيدة وهو مرتحل إلى مصر .

## ٢ - تحليل القصيدة :

إذا ما أنعمنا في القصيدة كلها نجد أنها تشتمل على عناصر وأفكار عدة ، أبرزت قصد الشاعر وكشف اللثام عن تجربته التي اضطربت بين جوانحه وعاني منها ما عاني ، فراح يصدق بهذه القصيدة وبتلك الأجزاء الفنية التي تعبر عن شعوره وإحساسه وصدق عاطفته. وأول هذه العناصر :

✍️ (المرثع عن الماضي السعير :

### الفكرة في الأبيات التالية :

١. الا ليت أيام الصفاءِ جديداً  
ودهراً تولى يا بثين يعود
٢. فنغنى كما كنا نكون وأنتم  
صديق وإذا ما تبذلين زهيد
٣. وما أنس مألشياء لا أنس قولها  
وقد قربت نضوى أمصر تريد ؟
٤. ولا قولها: لوى العيون التي ترى  
أتيتك ؛ فاعذرنى ، فدتك جدود
٥. خاليلي ما أخفي من الوجد ظاهر  
ودمعي بما أخفي الغداة شهيداً
٦. ألا قد أرى والله إن ربَّ عبرة  
إذا الدار شطت بيننا ستزيد

### التفسير اللغوي :

١. **جديد** : تجدد الماضي ورجوعه .  
**دهراً** : الفترة من الزمن .
٢. **تولى** : ذهب وابتعد . **وصار** : في حكم الماضي .
٣. **نغني** : نسعد بالإقامة .  
**نكون** : نوجد .
٤. **ما تبذلين** : ما تنيلين من الوصل والوداد . **زهيد** : قليل .
٥. **مألشياء** : من الأشياء .

٦. **النضو:** الضعيف المهزول من الحيوان يريد ناقته .  
يقول مهما أنس من شيء فلا أنس قولها وقد قربت من ناقتي أتريد مصر .
٧. **الجدود :** جمع جد .
٨. **بالفتح :** وهو أبو الأب تدعوله بالسلامة وتفتد به بالأهل .
٩. **الوجد :** الحب الشديد . **الغداة :** ما بين الفجر وطلوع الشمس .  
**شهيد :** ظاهر .
١٠. **العبرة :** الدمعة أو الحزن من غير بكاء .  
**شطت :** بعدت . أي سيكثر بكائي إذا افترقنا .  
**سنزيد :** خبر عبرة والجملة خبر أن المخففة .

### شرح وتعليق :

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث والتغني بأيام الصفاء الخالية والذكريات الطوة الجميلة التي قضاها في رحاب محبوبته أو بالقرب منها : فليتها ترجع كما كانت لتزفر ف عليهما السعادة ، وتهدأ النفس وتقر العين ولو بالقليل من الوصل والوداد . فما زالت كلماتها عالقة بذهنه ساعة الوداع وهو مرشح إلى مصر لا يستطيع نسيانها وقلبه ، ذلك لأن بثينة كانت تودعه بحرارة وشوق وفي صوت هامس تقول له : أنتصرف عن لتبتغي مصر ؟ تقولها وهي تخشى التلاقي ويصدها عنه عيون الحساد ونظرات العذال ، ولا تملك لا الاعتذار عن اللقاء ، والدعاء له والتضحية من أجله بالأهل والأحباب .

ويسير الشاعر بعد أن ودع محبوبته ، متقطع القلب يعصف به الشوق ، ويمزقه الحب ويتلظى بنار الفراق ، ويدوب من كثرة البكاء والحزن على فراق



١٣. وإن عروض الوصل بيني وبينهما  
وإن سهلته بالمني لصعود
١٤. فأفئيت عيشي بانتظاري نوالها  
وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

### التفسير اللغوي :

٧. أي إذا قلت لها إن الحب سيقتلني قالت : إنه باق وسيزيد .  
وهذا معنى قوله : ثابت ويزيد .
٨. ردي بعض عقلي : صوابي ورشدي ، والمراد الوصال الذي به يحيا بين الناس .
٩. فلا أنا مردود : أي لم أنل ما طلبت من بعض عقلي ،  
يبيد : يفني وينتهي .
١٠. جزتك : عاقبك . الجوازي : جمع جازية وهي المكافئة المنصفة .  
والمعنى : أنه إذا جوزي الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك في  
نفسى إلا العتب واللوم .
- والببيت : في الأصل جملة دعائية .
١١. الطريف : الجديد وضده التليد .
١٢. العروض : الطريق في عرض الجبل .
- صعود : مرتفع أو الطريق الشاق .
- والمعنى : أن الوصل صعب المنال وإن سهلته بالوعود .
١٣. نوالها : قربها ووصلها .
- أبليت الدهر : ذهب العمر بغير وصل .

## شرح وتعليق :

بعد أن وقف الشاعر طارقاً أبواب الذكريات والأيام الحلوة الجميلة ، ليخفف وطأة الحب عن قلبه المتيم ، ويسري عن نفسه المملوءة شوقاً وجنيناً يعد ذلك يحدثنا الشاعر ( جميل ) عما في نفسه من حب وشوق ، ويورد لنا حواراً بينه وبين محبوبته نسجه من خياله السامق ، ليؤنس وحدته وغربته ، ويطفئ نار الشوق المتأججة بين جوانحه .

وهو في هذا الحوار الملتهب ، يحاول إظهار ما يدور بين جنباته من حب قاتل يؤرقه ليلاً ونهاراً ، فلا يكاد يحس بطعم الحياة ولا لذة العيش ما دام بعيداً عن محبوبته لا ينال منها وصلاً ولا قريباً .

وترتفع نيرة الشاعر ، فيصف ما أصابه من جراء هذا الحب ، فنراه وقد ذهب عقله بسبب البعد والفراق ، فجاء يطلب الوصل عله يرجع إلى رشده وصوابه ويعش بين الناس عاقلاً رزيناً سعيداً هادئ النفس ساكن اللب .

لكن هيهات هيهات وقد بعدت الشقة بينه وبين بثينة ، فلم ينل منها ما أراد من وصل وقرب ينعم به ، ولا انشغل قلبه عنها وذهب حبها منه فيستريح ، بل ظل مشغول القلب ، شارد اللب ، ولا يملك إلا أن يلوم محبوبته التي أبت أن تمد إليه يد القرب والوصل ، ويذكرها بأنهما قد أخذوا على نفسيهما العهد والميثاق أمام الله على اللقاء والمودة والمحبة .

ويرجع الشاعر إلى الحقيقة المؤلمة أنه مهما أعطته محبوبته من وعود وأمنيات بالوصل والقرب إلا أن ذلك صعب محال ؛ ذلك لأنه قد حيل بينها وبين محبوبتها . ولا تملك من أمر نفسها إلا هذا القلب النابض بالحب ، لذا فقد أفنى الشاعر دهره في انتظار وعدها المزعوم وقضى زهرة عمره في طلب نوالها لكنه عاد بخفي حنين .

يصور الشاعر هذا العنصر قائلاً :

١٥. ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة  
بوادي القرى إنني إذا لسعيد
١٦. وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها  
لها بالثنايا القاويات وتُيد
١٧. وهل ألقين سعدي من الدهر مرة  
ومارثاً من حبل الصفاء جديد
١٨. وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسه  
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
١٩. وهل أزجُرُن حرفاً علاة شملة  
بخرق تباريها سواهم سود
٢٠. على ظهر مرهوب كأن نشوزه  
إذا جاز هلاك الطريق رقود
٢١. سببتي بعيني جؤذر وسط ريرب  
وصدر كفا ثور اللجين وجيد
٢٢. فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلاً  
فذلك في عيش الحياة رشيد

## التفسير اللغوي :

- ١٥ . **ليت شعري** : ليتني أعلم أو أشعر .  
**وادي القرى** : بلادهما شمالي المدينة بالحجاز .
- ١٦ . **الثنايا** : جمع ثنية وهي طريق ملتو في الجبل أو هي الجبل نفسه .  
**القاويات** : جمع قاوية بمعنى الخالية .  
**وئيد** : صوت شديد عاصف .
- ١٧ . **سعدئ** : يكنى بها عن بثينة .  
**رث** : بلى وتقطع .  
**ما** : مبتدأ خبره، جديد .
- ١٩ . **أزجر الناقة** : أصيح بها لتسرع .  
**الحرف** : الناقة الضامرة أو المهزلة أو العظيمة .  
**العلاة** : الناقة الطويلة .  
**والشملة** : السريعة .  
**الخرق** : القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح .  
**تباريها** : تسابقها .
- سواهم** : جمع ساهمة وهي الناقة الضامرة .  
**مرهوب** : طريق مخوف .
- نشوز** : جمع نشز وهو المكان المرتفع .  
**هالك الطريق** : الذين ضلوه .  
**رقود** : نيام وهو خبر كأن .
- ٢١ . **سبتني** : أسرتي وسحتني .  
**الجؤذر** : ولد البقرة الوحشية .  
**الربرب** : القطيع من بقر الوحش .
- الفائور** : الجفنة وهي الإناء الواسع .  
**اللجين** : الفضة .  
**الجيد** : العنق وهو بالرفع على أنه مبتدأ خبره ( لها ) محذوف .
- ٢٢ . **القرين** : الصاحب والزوج .  
**رشيد** : موفق .

## شرح وتعليق :

استطاع الشاعر ( جميل ) أن يصور ما في داخله من شوق ومحبة لبثينة وما يعانیه من الهجر والصد وضياع الأمل في اللقاء ، مما جعله يحلم ويتمنى بأسلوب المشتاق التلهف - المبيت ليلة واحدة في أرض محبوبته ليأنس بها ويسعد بالقرب منها - وإن كان لا يراها تلك الأرض ( وادي القرى ) التي شهدت أول بذور للحب العذري بينهما ، فما أحلاه من مكان خال إلا منهما ، تعزف الرياح فيه أعذب ألحان الهوى العذرى ، فيتم الوصل ويتجدد الحب ، ولم لا وقد يتحقق هذا الحلم وتلتقي الأهواء بعد الياس ، وهذا يجعله يقطع الفيافي والقفاز من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الأمل المنشود، والوصول إلى هذه الجميلة التي سحرته بجمالها أخذته بعيونها الجذابة ، وقوامها المعتدل الرائع ، وكل ما يتمناه أن يسعد الدهر بليلة في هذا الوادي الذي يقطن فيه هذا الجمال الآخاذ ، وتكتمل سعادته ويرتوي ظمأ قلبه بمجرد المبيت دون أن يلتقي بها أو يراها ، فهي في نظره، نموذج صالح للمرأة التي جمعت المحاسن كلها في نسبها وخلقها وجمالها ودينها ، ومن يفزبها فقد فاز بالخير كله وعاش في الحياة سعيداً موقفاً .

عدوة إلى وصف حبه (العزري وجهاوه فيه :

يقول الشاعر مصورا هذا الحب :

٢٣. يموت الهوى مني ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

٢٤. يقولون : جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد ؟

٢٥. لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل بينهم شهيد

٢٦. ومن كان في حبي بثينة يمترى

فبرقاء ذي ضال على شهيد

٢٧. ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني

أضاحك ذكراكم وأنت صلود

### التفسير اللغوي :

٢٣. يموت القوى مني : يضعف الحب . فارتقا : ابتعد عنها.

٢٤. جاهد بغزوة : أخرج للجهاد في سبيل الله كي تنسى حبه .

٢٥. بشاشة : بهجة وسرور .

شهيد : الميت لغاية نبيلة كالمجاهد في سبيل الله تعالى .

٢٦. يمترى : يشك .

البرقاء : أرض غليظة ذات حجارة ورمل وطين أو كل شيء فيه سواد

وبياض وبرقاء ذي ضال إحدى برق بلاد العرب . يتخذ من

مواقفه فيها شاهدا على حبه الشديد .

٢٧. ذو الودع : طفلها يعلق عليه الودع وقاية ، وهو محار صغير أبيض

صلود : بخيلة .

معروف .

## شرح وتعليق :

علم الشاعر أنه لا أمل في لقاء محبوبته والائتناس بها ، فراح يصف حاله وما ألم به من وجدٍ وصباية ، واشتعال الحب بين جوانحه ، ولا يطفى هذه النار المتأججة إلا لقاء محبوبته ، ثم تعود لتشتعل مرة ثانية بعد فراقها ، فهو لا يستطيع نسيان ( بثينة ) حتى لو خرج للجهاد كما نصح إخوانه وأهله ، حتى ينسى هذا الحب الجارف ويرى أن الجهاد الأكبر في مجاهدة هذا الحب والصبر عليه ، أو يموت شهيدا في سبيله .

ثم ينتقل الشاعر إلى بيان صدقه وإخلاصه في حبه ( لبثينة ) فيخاطب من يشك في هذا الحب وذلك الإخلاص بأن يذهب إلى وادي البرقاء ويسأله عن مواقفه مع بثينة في هذا الوادي ، كي يكون دليلاً على حبه وإخلاصه وتفانيه في حب بثينة في بُعدها وقربها ؛ ففي قربها يهدأ القلب وتصفو الريح وفي بعدها وهجرها يعيش الشاعر يخاطب الذكرى الجميلة ويضاحكها ، حتى لو بخلت عليه باللقاء ، فهو يعيش على الذكرى الجميلة ، والأيام الحلوة الخالية .

## تحليل ونقد :

تناولنا في الصفحات السابقة شرح بعض من شعر جميل في الحب العذري، ورأينا كيف تلاءمت المشاعر والخواطر مع موضوع واحد ، وتراسلت المعاني وتتابعت الأفكار من أول بيت إلى آخر القصيدة ، لتتلاقى في مجرى واحد يصب في موضوع واحد هو الحب العذري.

وإذا ألقينا نظرة على هذا الحب ، وحقيقته نرى أن الحب له صورتان .

**الأولى :** حب حسي يفتش فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنثى تحقق له المتعة والبهو وإرضاء الحواس ، وفتنة تدفعا إلى طلب الجنس الآخر في عمومه لأنه يري فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهو، وإرضاء حواسه ، وعلى ذلك فالمرأة في هذه الصورة ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه ، ولذلك فالمحب بهذا اللون لا يقف حبه عند واحدة بعينها يهب لها قلبه وحبه ومشاعره، وإخلاصه ووفاءه ، ولكنه ينتقل من واحدة إلى أخرى كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلبا للرحيق والعطر الفواح ، لذا لا نراه يقنع بالشرب من كأس واحدة ، وهو لا يطلب الكأس إلا أن ترري ظمأه ، ونيل صداه ، وتطفئ نار لوعته . فالمرأة نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من متعة .

**والثانية :** حب روعي طاهر عفيف يصدر عن مشاعر راقية متدفقة وعاطفة نبيلة صادقة وصباغة عنيفة مبرحة ، ويقوم على الإخلاص الشديد ويميل إلى المبالغة غير المقبولة أحيانا في التفاني والضراعة ، ليعبر عن فطرة سليمة ونزعة إنسانية مهذبة .

كما أنه حب يتعلق فيه العاشق بمحبة واحدة ، يري فيها مثله الأعلى الذي يحقق له المتعة الروحية ، ورضا النفس ، واستقرار العاطفة ، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله ، وتحقق فيها كل أمانيه ، فالمرأة عنده هي هدفه الذي يطلبه ، والغاية التي يسعى إليها ، والأمل الذي يرتجيه ، والمعبود الذي يقضي عمره في محراب حبه ، ويوقد له الشموع ، ويحرق البخور ، مثله مثل الفراشة التي تتهافت على النور ولا تزال تحوم حوله حتى تحترق بناره، فالمحبة عنده هي الكأس التي يقضي حياته ظامئاً إليها لا يعدوها إلى غيرها، ولا يتجاوزها

إلى سواها، لأنه لا يطلب الرّيّ في أي كأس ، ولكنه يطلبه في كأس بعينها هي تلك التي تعجبه وترضيه (١).

والحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب قديماً عرفوا هاتين الصورتين من الحب ، ( العذري والحسي الفاحش ) فكل من يقرأ الغزل الجاهلي ويتتبع الحياة الاجتماعية في هذا العصر يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب .

فإلى جانب امرئ القيس والأعشي وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسي في الحب ، عرف المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه العذري العفيف ، وأطلق عليهم لقب ( المتيمين ) تمييزاً لهم عن سائر الشعراء وربطوا بين كل ميثم وصاحبه كما كان الحال عند العذريين في العصر الأموي : فالمرقش الأكبر وأسماء والمرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحدادية ، ونعم وعبد الله بن علقمة وحبيشة ومالك بن الصمصامة وجنوب، وعمرو بن كعب وعقيلة ، وعترة وعبلة .

وهذا يعطينا إشارة إلى أن الحب العذري لم يأتي من فراغ ، أولم يكن نتاجاً أمويًا خالصاً وإنما كانت له جذوره الممتدة في العصر الجاهلي ، لكنه لم يتحدد معالمه ، ولم تكتمل صورته وعناصره الفنية والخلقية ، ولم يظهر في قصائد مستقلة تحققت فيها الوحدة الموضوعية ، إلا في العصر الأموي ، بعد أن استقام الأمر لبني أمية واستقرت لهم دولتهم الجديدة ومع هذا الاستقرار تميزت صورة الحب العفيف لسماة معينة واتخذت لها طابعاً خاصاً اكتسبت اسماً جديداً عرف باسم " الحب العذري " نسبة إلى قبيلة بني عذرة ، وفي أرجاء البادية العربية

١- أنظر : الحب المثالي عند العرب . د / يوسف خليف .

ظهر عشاق عدوا النماذج الصحيحة لهذا الحب والمثل العليا له بكل سماته المميزة، وطولبعه الخاصة، فأطلق عليهم أسم العذريين نسبة إلى هذا اللون من الحب.

كما أن الإسلام كان سببا في أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول في لوحة الحياة البدوية الإسلامية، فالإسلام هو الذي حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يجرمه الإسلام ولا ينكره.

والقصيدة التي بين أيدينا لشاعر من أكبر الشعراء العذريين الذين أبدعوا في هذا المضمار، وعبروا تعبيرا صادقا للفطرة الإنسانية الصافية، استجابة فعالية لتناقضات مذهبية، وتوازنا روحيا وإسلاميا وخلقيا بين الصراعات السياسية والمبالغة والإسراف المادي والترفيه واللاهبي العابت، فكان الحب العفيف وأصحابه الوجه الآخر للصراع السياسي الدائرين شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج وزييريين والحزب الأموي الحاكم، فترفع بعض الشعراء عن الخوض في هذه التيارات السياسية ليتغنوا بالحب الطاهر العفيف، مجرنا عن الأهواء والشهوات والمذات والإسراف المادي؛ للتعبير عن الخلق السامي، والروحية الصافية المهذبة (١).

١- انظر الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ج ٢ / ٥٤ ، د / على صبح .

القيم الموضوعية والشكلية :

## أولاً : من حيث الموضوع :

أشرنا فيما سبق إلى أن موضوع القصيدة هو الحب العذري الذي شاع في العصر الأموي واشتهر به كثير من الشعراء أمثال جميل ، الذي استطاع أن يخاطب قلوب المحبين بأشعار مطبوعة بأريج من الحب الصادق النبيل ، ولهيب من العواطف الجياشة والأحاسيس المتأججة التي تذوب لها حشاشات القلوب ، كما جاء مطبوعاً بجملة من القيم العذرية التي تتسم بالعفة والطهارة وتتعالى فيها صيحات الروح وحسن الخصال على نداء الغريزة ومطالب الجسد ، وما ذلك كله إلا من ينابيع الفرسية النبيلة التي كانت تتحلى بها القبائل العربية قديماً وبخاصة قبيلة ( عذرة ) التي نسب إليها هذا الحب .

والقصيدة التي بين أيدينا تعد مرآة صافية لحياة الشاعر ، ودليلاً فنياً على صدق فنه ورقته لما تجسدت فيها من ملامح الحب العفيف الطاهر وتوارت فيها القيم الإسلامية الراقية ، وذخرت بها من قيم عصره وزمانه ، فكانت بذلك نموذجاً راقياً تتجلي فيه عذرية الشاعر ومقومات فنه فما مظاهر ذلك كله ؟

### ١- الملامح العذرية :

استطعنا فيما سبق أن نضع أيدينا على مفهوم الحب العذري . ولكي يكون الحب أو الغزل بهذه الصفة لا بد لها من ملامح تظهر في عمل الشاعر وتجربته التي يعانيتها ويصوغها شعراً ، وتجسد القيم النبيلة في الغزل مثل العفة ووحدانية المحبوبة، والحرمان من وصلها ، والإخلاص لها والوفاء بعهددها ، والأمل في وصلها ولقائها ، وكلها سمات عذرية اكتنفت علاقة المحبة المتبادلة بين جميل وبثينة ،

وبخاصة إذا عرفنا أنه شاعر عربي أصيل تربي على أخلاق الفروسية العربية الأصيلة وتخلّى بأخلاق الفوارس النبلاء من الشجاعة والكرم والبرء والاعتداد بالنفس والذود عن المرأة وحمياتها ، وكلها صفات خلقية اكتسبها شاعرنا ( جميل ) من منابعها الأصيلة من البيئة العربية .

ومن ثم وجدت عاطفة المحبة والغزل العذري مناخاً طيباً وتربة خصبة لنموه وازدهاره، وتعدد ملامحه وصوره في القصيدة .  
فمن أقواله التي تتجسد فيها الملامح العذرية وتبرهن على حبه الذي يكتمه بين جوانحه .

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

وقسمه على صدق حبه في القرب منها أو البعد عنها وازدياد عبرته وحرزته إذا فارقها :

ألا قد أرى والله أن رب عبـرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

وقوله يبرهن به على تأله وشدة وجده وصابته ، وتأجج الحب بين جوانحه :

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

ومن الملامح العذرية أيضاً قوله يبرهن به على شدة حرمانه ولوعته لفراقها وصعوبة وصلها :

إنّ عروض الوصل بيني وبينها

وإن سهلته بالمني لصعود

وقوله يبرهن به على أمله الدائم في لقاءها ومعاودة وصلها من جديد والتنعم  
بالصفاء والهناءة كما كان في سالف عهده ، ويبرهن به كذلك على إخلاصه في حبه  
لها وعدم العدول عنه إلى غيرها .

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

\*\*\*\*\*

فأفانيت عيشي بانتظاري نوالها

وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

\*\*\*\*\*

وهل ألقيت سعدي من الدهر مرة

ومارث من حبل الصفاء جديد

وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسه

وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

ومن الملامح العذرية في القصيدة قوله يبرهن به على صدق حبه ومجاهدة

نفسه فيه ورده على المشككين في هذا الحب وذاك الطهر :

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد

\*\*\*\*\*

ومن كان في حبي بثينة يمتري

فبرقاء ذي ضال على شهيد

ومن أقواله الشاهدة على عذريته والاعتداد بمحبوبته وتمجيدها وإثبات أنها خير قرين :

فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلها

فذلك في عيش الحياة رشيد

وهكذا توافرت في القصيدة ملامح عذرية الشاعر وعفته وطهارته التي تشهد على إخلاصه في حبه وتفانيه وتهالكه في صبابته ، وهذا لا يتنافى مع شهامة العربي ورجولته وفرسيته ، فكما كان يعتد برجولته وقوته وشجاعته في ميدان الحرب والقتال ، كان يعتد كذلك بخضوعه واستسلامه لسلطان المحبة والهوى والغرام ، وقد استحسنت النقاد هذا الأمر وبخاصة في ميدان الغزل العذري ومن ذلك قول ابن قدامه مشيراً إلى ذلك : " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصباية، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقّة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة، ووافق الانحلال والرخاوة، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض " (١) .

كما ينبغي الإشارة إلى أمر هام وهو وجود بعض الأوصاف الحسية لبثينة في القصيدة وهذا لا يتنافى مع عفة الشاعر وطهارته وعذريته في حبه، لكنها صورة تتفق مع إجلالها وقدسيتها ومنزتها في قلبه ، كما أنها دليل على تعلقه بها . فهو قد تعلق بجمال ربحها وحواسها .

١- نقد الشعر لتقديمه بن جعفر ص ١٣٤ .

ومن ذلك قوله :

سببتي بعيني حوذر وسط ررب

وصدر كفأثور اللجين وجيد

فهذه أوصاف حسية ، ولكن الشاعر لا يقصدها لذاتها ، وإنما لما تركته في نفسه من أثر طيب جعله يتعلق بها جسماً وروحاً ، دون أن يعرضها في صورة من الفحش والابتذال ، ومن ثم يتأتى لنا وصف رائع لجمال محبوبته - كما يراها في عينيه - في صورة تجمع بين جمال الروح والجسد .

وهذا ليس معناه أن يتمادى الشاعر العذري في وصف محبوبته وصفاً حسياً مبتذلاً ، وإلا لا يتسم بالعذرية والعفاف .

## ٢- القيم الخلقية والدينية :

كان للإسلام وتعاليمه السمحة الراقية الأثر الكبير في تأصيل الحب العفيف وانتشاره ، ذلك لأن الإسلام دعا إلى ترسيخ القيم السامية ، والتخلي بالأخلاق الفاضلة ، ولما كان الحب العذري أساسه التعاطف الروحي والوجداني ، فقد أقره الإسلام ، وازداد الشعراء تمسكاً بتعاليم الإسلام ، ووجهوا عواطفهم وأحاسيسهم نحو مظلة الإسلام وتعاليمه السمحة ، كما جاءت أشعارهم في هذا الاتجاه مشتملة على كثير من القيم الخلقية والدينية ، حتى صار هذا منهجاً في النسب والغزل ، سار عليه شعراء الحب والنسب في الشعر العربي والإسلامي في كل العصور الأدبية ، حتى يرى بعض النقاد أن الحب الإلهي انطلق من هذا الفن ،

وأصبحت صورته وأعلامه ومعالمه رموزاً ومصطلحات وصوراً في الأدب الصوفي يعد ذلك عند سلطان العاشقين إن الفارض وغيره<sup>(١)</sup>.

وقد اشتملت القصيدة على كثير من القيم الخلقية والدينية منها :

التعاطف الرحي المجرد من الشهوات والملذات ، ذلك لأنه لا يبغى من وراءه المتعة الحسية والجسدية الغانية بغناء وقتها ، بل يرمي المحب إلى الصفاء الرحي والتعاطف الوجداني ، الذي يملأ النفس اطمئناناً ، ويشع جواً مليئاً بالطهر والعفاف وقد تجسد هذا المبدأ السامي وتلك القيمة الرحية العالية ، في قول الشاعر جميل :

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

فهو هنا لا يطلب إلا ذلك الصفاء الرحي المجرد من الشهوات والملذات الفانية ، وهذا مبدأ سام يرفع من علاقة الرجل بالمرأة ، كي لا تكون قائمة على النفع المادي الفاني .

التعلق بالذكريات الجميلة ، وأحاديث النجوى الطاهرة ، ذلك أنها خلق

إسلامي يدل على الوفاء وعدم الجحود والعرفان بالجميل ومن ذلك قوله :

وما أنس مألشياء لا أنس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التي تري

أتيتك فاعذرنى فدتك جدود

١- انظر الأدب الإسلامي ج ٢ / ٥٥ / د / علي صبح .

كما نلاحظ في البيت الثاني خلقاً سامياً هو خلق الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان بالله عزوجل ، والحياء والإيمان مقترنان إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر، ومن لم يستح من الناس لا يستحي من الله عزوجل .

الدموع والعبيرات دليل على رقة القلب ، وهي رحمة ينفس بها الإنسان عن نفسه ويذهب بها بعضاً من نار الوجد ، ويتصير بها على بلائه ، ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة والقذوة الطيبة ، حيث بكى النبي ﷺ ولده إبراهيم ، فتعجب بعض الصحابة من بكائه فرد عليهم ﷺ قائلاً: " إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفرأقك يا إبراهيم لمحزونون وإنها رحمة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " .

وقد تجسد هذا الخلق الرفيع وتلك القيمة الروحية في قول ( جميل ) معبراً

عن تأله لفراق محبوبته وإنهمار الدموع من عينيه :

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

ألا قد أرى والله أن ربَّ عبـرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

من القيم الخلقية النبيلة التي اشتملت عليها القصيدة ، المشاركة الوجدانية في المشاعر والأحاسيس الإنسانية الفياضة بالحب ، وهذه قيمة إسلامية فإذا بادرك إنسان بمشاعر الحب والود لزم أن تبادله هذا الشعور وتصرح له بذلك ، وبخاصة إذا كان حبا مبرئاً من الغرض الزئلل ، والمجرد عن الشهوة الفانية ، وفي الحديث النبوي الشريف :

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ورجلان تحابا في الله

اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

ومن ثم كان تبادل المشاعر الوجدانية من القيم الإسلامية التي حثت عليها الإسلام ورغب فيها ، ونفر من التقاطع والتدابير والحقد والحسد والبغض ، وتمثل هذا المبدأ السامي في قول جميل :

إذا قلتُ : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

وإن قلتُ: ردي بعض عقلي أعش به

مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا

ولا حبهما فيما يبىد يبىد

من القيم التي اشتملت عليها الأبيات الوفاء بالعهد ، ورعاية المواثيق ، ونحن نعلم أن هذا الأمر من مبادئ الإسلام السامية التي حثت عليها القرآن الكريم، والسنة النبوية ، يقول الله عز وجل أمراً بالوفاء بالعهد :

﴿ ... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (١)

وقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... ﴾ (٢)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

١- سور الإسراء : من الآية ٣٤ .

٢- سور المائدة : من الآية ١ .

٣- سور النحل : الآية ٩١ .

ويقول عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ (١)

ويقول الرسول ﷺ :

" آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان "

ومن هذا المنطلق ومن تلك القواعد الثابتة انطلق جميل وراح يذكر بثينة بذلك العهد المبرم بينه وبينها والله شهيد عليه ، ليكون أدعى للوفاء به وعدم نقضه. يقول جميل :

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي

من الله ميثاق له وعهود

وقد كان حبكم طريفا وتلدا

وما الحب إلا طارف وتالد

وهكذا اشتملت القصيدة على مجموعة من القيم الخلقية والدينية ، التي تنم عن ثقافة الشاعر الدينية التي تربي عليها ، فهدبت من سلوكه ورققت حواشيه وجوانحه ، وكانت تمثل سياجاً يحميه من الانفلات نحو الغزل المكشوف المتبتل .

**ثانياً : من حيث الشكل :**

الشعر له رسالته الفنية الخطيرة في تجارب الحياة والمجتمع ، بل فاعليته المؤثرة في البناء والهدم ، والسمو والانحطاط ، وذلك من خلال الأثر الفني والشعوري الذي يكون مادة أساسية في التأثير على المتلقي ، والتعامل المباشر مع مشاعره وأحاسيسه ، وبالتالي تطويعها ، وتشكيل مزجها سلباً أو إيجاباً ، ولم يكن

١- سور الرعد : الآية ٢٠:٢١ .

للشعر - عامة - من فضل في هذا التأثير إلا عبر عناصر فنية يتشكل منها الأسلوب، تغدو مقوما أصيلا في تشكيل القالب الفني للأداء والتعبير، ومقوما فنيا أصيلا - كذلك - في تحقيق القوة التأثيرية للتجربة فيما تحمل من مضامين وفيما تعالج من موضوعات .

وتتعدد هذه العناصر الفنية التي يتشكل فيها القالب الأسلوبي من لغة وعاطفة وخيال وموسيقى، تغدو كلها لبنات أساسية في تجسيد الأفكار، والألوان الشعورية، وما تكنه النفس من مكبوتات ودفائن .

وحيثما تكون شاهدة عيان على شاعرية الشاعر؛ إذا تحتاج هذه المواد - في تحقيق أثرها الفني في التنسيق بينها، واستغلال إيجاباتها للتمكين من إنشاء قالب أسلوبي فني، يتضمن السمات الفنية الحية والرصانة والقوة والمتانة .

ولم يكن ثمة شيء قد مكن الشعراء من توظيف أحاسيسهم ومشاعرهم في نقل الجوانب الإنسانية وغيرها سوى مهارتهم في التعبير الفني المحكم بهذه العناصر الفنية للأسلوب .

والقصيدة التي بين أيدينا اشتملت على كثير من القيم الفنية، ونحن بصددها تفنيدها .

## ١- الصورة والأظية :

والصورة من الأمور التي يركز عليها الشعر، فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره، كما أنها تتلون بعاطفته وأفعالاته، وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة

النهاية ، وفي اختيار اللغة المناسبة والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة<sup>(١)</sup> .

إذن فالصورة عبارة عن أجزاء تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها، وينسق ألوانها حتى تكون معبرة وموحية عن خواطره وأفكاره وتجربته ، ولا يأتي هذا إلا من خلال تناول الموضوع والسير فيه عن طريق الكلمات والعبارات ، التي هي من أهم مكونات الصورة لما تؤديه من دور بارز في الإيحاء عن نفسية الشاعر، لكنه المسئول عن تنسيقها وتنظيمها ، وضبط إيقاعاتها مع الجوال الشعوري الذي يريد أن يرسمه ، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية .

ولهذا لا ينبغي للشاعر أن يقف على المدلول القاموسي للفظه وحسب بل يخرجها منه إلى معنى أرحب وأوسع وأجمل ، ووضعها في مكانه المناسب من العبارة لتكون اللفظة رهينة الأصوات الموسيقية التي تتألف في تركيبها ولتعطي صورة واضحة متناسقة الألوان والظلال ولكي تكون الصورة باهرة رائعة ، ينبغي أن يصاحبها شيء من الخيال ليجمع بين أجزائها وينظمها ، ويوفق بين ما يكون فيها من متناقضات عن طريق رؤية الوحدة الباطنة المخفية وراء هذه المتناقضات ، فإذا التفرق في الطبيعة يصبح متكاملًا موحدًا لتكون ذات تأثير إذ إن قوتها تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور المدعمة بشيء من الخيال بعيداً عن الأفكار المجردة أو المبالغية .

وعلى هذا الأساس فالصورة : عبارة عن قالب له أجزاء يصب فيه الشاعر أفكاره وخواطره ويلونها بألوانها المناسبة ، وينظم أبعادها ، وسيلته في ذلك الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال ، وهي أداة الشاعر الفنية يعبر عن تجربته ،

١- انظر مقدمة في النقد الأدبي ، محمد حسن عبد الله ص ٢٤٠ .

ويرسم مشاهد من حياته وواقعه ، قوامه الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات يتكرر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالماً متميزاً جديداً يجمع فيها بين عناصر متباعدة ، في إطار من الانسجام والوحدة ويصور المعنى تصويراً جمالياً ، ويخاطب المشاعر.. ويدع للخيال حرية التخيل حول الصورة المشكلة .

والصورة الرائعة هي التي يصل الشاعر من خلالها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم ، والتجربة الشعورية للحب العذري من أقوى التجارب الأدبية ، وأبلغها غاية في الصدق الفني الذي يقوم على التلائم بين المعاناة في مشاعر الحب الهادر ، وجدانه القوي ، وبين عناصرها من العاطفة والمشاعر الرزحية والخواطر وأدواتها في التصوير من الألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة والخيال ووافد الموسيقى المختلفة ، لذا فقد رأينا الشاعر ( جميل ) يبرهن على رقة مشاعره ومعاناته في الحب ، بدخوله في الغرض الأصيل للقصيدة وهو الحب العذري دون أن يقدم لها كما اعتاد معاصروه من الشعراء ، وقد عمد جميل إلى هذا النهج الفني نتيجة لاحتشاد مشاعره وشاعريته بوابل من زفريات الوجد المكبوتة بلهيب الشوق إلى محبوبته ، ومن ثم فهو ليس في حاجة إلى مقدمة طويلة يتوسل بها إلى ذكر صاحبته ، وإلهاب مشاعره وحشد شاعريته نحوها كما أعتاد كثير من الشعراء قبله بل هو في حاجة ملحة إلى التنفيس عن عواطفه وجراحه المكبوتة ، عليه يجد من خلاله متنفساً يريح به قلبه ، ومن ثم قصد إلى ذكرها والحديث عنها في عجلة مباشرة .

ومن هذا المنطلق فإن هذا النهج الفني سرعة الولوج إلى موضوع القصيدة ومباشرة الحديث فيه يكاد يمثل عاملاً وخاصة مشتركة عند شعر الحب العذري .

ولعل أبرز دليل على صحة هذا الرأي تلك البداية الرائعة التي بدأ بها جميل هذه القصيدة حيث يقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بئثين يعود

إذ قصد إلى مخاطبة صاحبه في تلقائية ولهفة وتطلع إلى أيام الصفاء والنقاء والطهر والعفاف وتزاد تلقائية الشاعر وبراعته في استهلاله لغرضه دون واسطة أو مقدمة ، من مخاطبته لمحبوبته يقوله ( يا بئثين ) ، فقد حدد حاجته وسؤله ورجاءه ، وهذه صورة تبعث على الإعجاب بشاعرية جميل، وحسن استهلاله لهذه القصيدة وتمكنه من أدوات فنه .

ومن الصور التي أسهمت في إظهار المعنى ، والتعبير عن مكنون الشاعر، والإفصاح عن مراده . قوله في البيت الثالث :

وما أنس من الأشياء لا انس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد

فهو يوحى بأن بئثينة قد أخذت منه كل شيء وسلبت عقله ولبه حتى عاد لم يتذكر شيئاً إلا شيئاً واحداً هو قولها " أمصر تريد " وفي هذا إحياء باستمرار الحب بينهما ، لكنها تستفهم وتستنكر الفراق والاعتراب الذي يوجب الحب ويزيد حرارة الشوق والحرمان .

كما أن في البيت صورة أخرى قوله " قرت نضوي " حيث يصور ذلك الحياء الذي يملأ قلب بئثينة ونفسها وهو من سمات الحب العذري القائم على الطهر والعفاف ، فهي لا تصرخ بما يدور في نفسها من خوف ولهفة على فراق محبوبها ، لكنها اقتربت منه كي تهمس في أذنه ، فالصورتان نابعتان من

الحقيقة ، فهي - في نظره - لا تسأل بالإستفهام عن سفره إلى مصر، فهو أمر مقرر وحقيقة واقعة ، وإنما تصور لوعة الفراق وآلام الغربة ومرارة الابتعاد .

وثمة صورة في البيت الرابع ، تبرز كذلك - حياء محبوبته وعفتها وخوفها من الوشاة والحساد لذلك فهي لا تستطيع توديع محبوبها ، وحتى لا يظن بها محبوبها التقصير ، بل هي في حالة من الخوف والحياء معاً خوف من عيون الحساد والوشاة ، وحياء من أن يراها أحد لذا فإنها تقسم له بأنها غير مقصرة وأنها تفديه بنفسها وروحها ، بل بأبائها وأجدادها ، دليلاً على إخلاصها ومحبتها.

وأما قوله : " فيما يبديد يبديد " فهو صرخة الشاعر الذي لا يملك الفرار من لوعته العاتية لأن المقادير نزهتها عن الفناء ، كما نلمح هذا التجانس في الإيقاع من حيث اللفظ والتناسق في التقابل بين المعنيين وهو إيقاع موسيقي أيضاً ، فالعنى الأول يغاير الثاني رغم هذا التجانس اللفظي ، وهذا يعطي نغماً موسيقياً يدل على موهبة الشاعر في التصوير ، وإبراز معالم الحب العذري وسمات الغزل العفيف .

وفي الأبيات الخامس عشر وحتى الثامن عشر ، صور أدبية متركبة ومتنوعة فالاستفهام في " ألا ليت شعري " يعطي صوراً متلاحقة مثل صور العرض ، للأسلوب الإنشائي وبين الوصل والمنع إلى حد " التعذر " أو اليأس القاتل .

وكذلك الاستفهام في قوله : " وهل أهبطن أرضاً " يصور الرجاء والتحسر والدعاء والصراع العنيف والخوف من عوائق الطبيعة كالسهول والوديان والجبال ، والعواصف والرياح والأنواء والأمطار ، فمظاهر الطبيعة تشاركه الثورة والصراع

والعنف وهي من سمات المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة ومظاهر الحياة والكون .

والاستفهام الثالث : " وهل ألقين سعدي " يصور النفي والإنكار والخوف من الوثأثة ثم الرمز بـ " سعدي " عن بئينة حفاظا عليها أو حماية لها من أهلها ، أو مراعاة للتقاليد والعادات عند العرب ، أو سيرا على نهج الشعراء وفي التكنية عن أسم محبوبتهم الحقيقي بسعدي أو بليلى وغيرها من الصور التي تنزح حول هذا الرمز الغزني .

ثم تنتهي القصيدة إلى قمة التصوير الأدبي للمبالغة في قمة الحب العذري الطاهر، لتكون كالحكم القضائي والنتيجة الحتمية لهذه التجربة الشعورية في الحب العفيف الصادق ، وذلك في تصوير مكابدة الحب، والعاناة فيه، والجهاد في الحفاظ عليه، وتقويته ومقاومة الصراعات والتيارات من حوله، حتى يتحقق له إحدى الحسنين ؛ إما الزواج ولتمتع بالحديث العذب وإما أن ينال الشهادة في سبيل الحب العفيف . يقول جميل بثية :

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة

وأني جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتييل بينهن شهيد

## ٢- الألفاظ والتراكيب :

الألفاظ والكلمات تلعب دوراً بارزاً في الشعر إذ إنها تساعد على بعث صور إيحائية ، وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة .

ومن ثم عندما يتخذ الشاعر لنفسه كما ضخما من الكلمات التي يخدم أو يعرض بها موضوعا ما يجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على المعنى الذي يسوقه ، إذ يساعدنا هذا على معرفة الشاعر ونفسيته ، وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره . إذ إن ما يعبر الكاتب عنه حقا هو طبعه وشخصيته العميقة وما يفضله وما ينفر منه ، ومظهره ، ونمط حياته ونفونه واتزانه وحيويته وفتوره ، وهذا ما يعبر عنه إن كان يقدم بياناً حقيقياً باهتماماته الخاصة .

ويتجاوز مع هذا العنصر عنصر آخر له أهميته ، وهو العاطفة ، ومن خلالها يندفع إلى الشاعر الكشف عما يعتمل في نفوسنا ، أو خبايا الكون استجابة لهذه العاطفة وفي لغة هي صور ، ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية ، أو لاتجاه شعري ، إذ أن لغة الإنسان جزء من تركيبته النفسية ، وإن انتقاءه للكلمات والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب في أعماقه .

ومن هذا المنطلق فقد اتسمت القصيدة بالسهولة والوضوح في ألفاظها ومعانيها في إحياء تام وجلاء بين ، وهي سمة فنية تكشف عن قدرة الشاعر وتمكنه من أدوات فنه ، وتنم عن ثقافته الفنية ودرايته بالألفاظ واللغة ومعانيها ، لذا نراه يعمد إلى المعاني المركبة فتسلس له وتذوب رقعة وسهولة فإذا هي مجلوة واضحة

يدركها المتلقي دون عناء أو تعب ، ويرجع ذلك - كما أشرنا من قبل- إلى قوة العاطفة ونوعيتها ، والشاعر هنا شديد الشغف بمحبوبته فهمي تفكيره، وحواسه ومشاعره وحبه الذي ينصرف إليه بفكره وفنه . ويسخرهما لخدمة هذا الغرض وتلك العاطفة الجياشة ؛ لذا نراه لا يجهد نفسه وراء المعاني البعيدة أو الخيال الجامح ، ولا يتكلف الألفاظ العربية المتقكرة ، وإنما ينساق بشاعريته وعاطفته وفيض حبه إلى المعاني الرقيقة والتركيب السهلة التي توحى بمكنون نفسه وتنم عن مراده وتفصح عن تجربته دون عناء أو مشقة.

ومن ثم فالناظر إلى المعجم اللفظي للشاعر في هذه القصيدة ، يرى كما هائلاً وسيلاً منهمراً من كلمات الحب ، والوصال التي تدل عما في نفسه من حب وعشق وهيام مثل : الوجد والدمع ، عبرة ، الحب ، حبكم ، الوصل - نوال - سعيد - سعدي - الصفاء أهواء إلى غير ذلك من الكلمات التي توحى وتعطي دلالة على حبه وصدقه فيه .

كما أن هناك كما من الألفاظ التي توحى بمعاناته وتأله من البعد والفرق وقلّة الوصال ، ومن ذلك : ألا ليت ، تولى ، يعود ، فنغني كما كنا نكون - وما أنسى ، لا أنسى قولها ولا قولها : لولا العيون . فاعذرنى - فدتك جدود - خليلي ما أخفى - قاتلي - ردي بعض عقلي - بعيد ، فلا أنا مرئود ، صعود ، أفنيت عيشي - أبليت ذاك الدهر - هل أبيت ليلة - هل أهبطن أرضاً - هل ألقين - هل تلتقي إلى غير ذلك من الألفاظ والتركيب التي تدل على معاناته وتأجج صبابته وحرمانه ، وانتظار الوصال لم يحظ به .

وهكذا أستطاع الشاعر أن يبرز ملامح تجربته وحبه نحو محبوبته ، وكذلك معاناته وعفته وطهره في هذا الحب .

كما ينبغي الإشارة إلى أن القصيدة اشتملت على بعض الألفاظ التي تتم عن ثقافته الإسلامية، مثل: صديق، الله، حميد، ميثاق، عهد، والبيت الثالث عشر كله حيث يعلم أن بثينة ليست زوجته وإنما هي في عصمة رجل آخر وهذا خلق إسلامي. ومن الألفاظ الدالة عن ثقافته الإسلامية أيضاً: قرين - رشيد - يموت - يحيا - جاهد غزء - جهاد وحديث - قتيل - شهيد.

ولم ينس الشاعر أن يمتاح من الطبيعة ما يعبر به عن جزء من تجربته مثل أرض .. رياح جوئر، الثنايا.

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته في الحب العذري من خلال القيم الموضوعية والفنية التي وظفها في هذه القصيدة لتكون الركيزة التي يركز عليها في إخراج هذه التجربة من أعماق قلبه ووجدانه.